نوابغ المدرسة المارونية الاولى

المطران بطرس ضوميط مخلوف

بقلم حضرة الخوري بطرس غالب (تتمّة)

وقد توفق السفير بنيل اهمّ المطاليب فمنع قاضي الماغوصة ان يتقاضى المرارنة خمسة غروش عوض الثلاثة ارباع الغرش المرتبة سابقاً ورُفعت عنهم ولاية اساقفة الارمن وحُظِّر عليهم ان يفرضوا ايَّ ضريبة على المرارنة وكنائسهم وصدر امر بان يدفعوا خراجهم طبقاً لجريدة الاحصاء الجديدة دون ان يزاد عليهِ ضرائب اخرى . وكذلك حُرِّم على الحكام والارمن ان يأخذوا من المطارنة والكهنة والرهبان الآتين الى قبرس او القاطنين فيها خراجاً او ايَّ ضريبة سواه

ومما لا ريب فيه هو ان اهمَّ تلك الاوامر كان رفعُ ولاية الارمن عن المرارنة واعفاؤهم من . . الخراج اسوةً بالاكليرس المقيم في سائر ولايات السلطنة العثمانية

وقد كتب السفير الى الملك بتاريخ ١٩ تموز يعلمه بما نال ثم اخبره ان قائمقام الصدارة قال إن الشريعة المتبعة تقضي بان يصير احصاء الذكور كل ثلاثين سنة فيفرض على كل مكلف اربعة غروش وتجمل القيمة فتدفعها الطائفة او القرية او المدينة دون ما مراعاة الزيادة او النقص المتأتيين عن ولادة او وفاة او نزوح الى ان يُجرى احصاء جديد . ومع ان المرارنة بلغ النقص في عددهم مبلغاً اضطرهم الى دفع عشرين غرشاً عن كلّ مكلف بدل الاربعة الغروش فلا يمكن تجديد احصائهم بغير ارادة سنية لكنَّ السفير واصلَ سعيهُ لانه كان واثقاً ان جلالة الملك يرتاح الى كل مجهود يُبذَل باسمهِ لخير النصارى اللاتينين بجماه .

وفي كتاب السفير ده شاتونوف الى الملك سنة ١٦٨٨ جاء انه نال امرًا يمنع قاضي لفقوسية ان يتقاضى المرارنة الخراج الّا بموجب الجريدة الجديدة وان لا يكرههم على دفع ضرائب غير المفروضة عليهم باوامر سلطانية

٥ معاونته للدويهي واهتمامه بمصالح الطائفة

فما سبق ترى ان الشدائد التي قاساها موارنة قبرس ومطرانهم لم تكن خفيفة الوطأة لكنها ما اوهنت عزيمة الاسقف المقدام ولا اقعدته عن العناية المتواصلة بشؤون ابنائه الروحيين بل بامور الطائفة جمعاء ولاسيما في تلك الايام التي كان الاضطهاد فيها متفاقماً الى هذه الدرجة

ولما اضطر البطريرك الدويهي الى مغادرة كرسيه كان مطران قبرس رفيقه في تنقلاته المتكررة واياه كان يعتمد في قضاء مهام الوظيفة البطريركية الشاقة فتارة يُرسله الى زيارة ابناء الطائفة في الجبّة والبترون والشوف وعكار وكسروان كما رأينا وتارة يكلفه تهيئة المواد اللازمة لمقابلة او تصحيح الكتب الطقسية ليؤلف منها كتاباً متقناً صحيحاً يُركن اليه لان كثرة عدد الناسخين والنُسخ كانت قد ادخلت اغلاطاً عديدة حتى كدتَ لا ترى نسخة تنطبق تماماً على الاخرى. وهذا شأن النساخ في كل مكان وكتاب حتى في نَسخهم الاسفار الالهية

وكان اهتمام الدويهي منصرفاً في بادئ ذي بدء الى الشرطونية التي على صحتها تتوقف صحة الرسامات فأوعز الى المطرانين بطرس مخلوف ويوسف شمعون الحصروني (١ مطران طرابلس بان يجمعا النسخ ويقابلاها ويشفعاها بملحوظاتهما ثم يرفعاها اليه ليعيد النظر فيها ليصدّقها ويجعلها دستوراً للمطارنة في الرسامات. فاجتهد الاسقفان في جمع الشرطونيات القديمة وفحصاها وقابلا رتب الخدم كلها التي تخص الكنيسة المارونية على ما تسلّمها الآباء السالفون. وهذه الشرطونية وافق عليها الدويهي وبعثها الى رومية مع المطران بطرس مخلوف سنة ١٦٧٩ وامره أن يلتمس

---

١) المطران يوسف الحصروني. هو يوسف ابن عمه الحصروني أرسل الى المدرسة المارونية فاكمل فيها دروسه ثم عاد الى وطنه في سنة ١٦٦٨ فاتخذه البطريرك جرجس البسيلاني كاتباً له وفي سنة ١٦٧٠ رقي الى درجة الكهنوت فارسله الى رومية البطريرك الدويهي بعد انتخابه لاجل طلب التثبيت من البابا اقليمس الحادي عشر وبعد رجوعه بسنتين سقفنه على سيدة قنوبين ثم نقله الى ابرشية طرابلس في ١٦ تموز سنة ١٦٧٥ في دير مار شليطا قبس. له تآليف عديدة منها كتاب علم النيّة وهو مشهور. ونسخ كتباً كثيرة وزار الرعايا وعني بالوعظ وكلفه البطريرك مقابلة الكتب الطقسية مع المطران بطرس مخلوف كما رأيت وقضى نحبه في دير قنوبين سنة ١٦٩٥ في ١١ ك ١ وكان رحمه الله ورعاً وذا غيرة متقدة

من قداسة الحبر الاعظم الرخصة بطبعها على نفقة الكرسي الرسولي لتبقى هكذا محفوظة من التحريف والزيادات

ولهذه الشرطونية نسخة في الكرسي البطريركي المارونى علّق عليها ما حرفيته :

« جعلوا اعتمادهم (اي الدويهي والمطران المذكوران) على نسخة ارميا العمشيتي (١٢١٥) والنسخة بخط يد العمشيتي محفوظة في مار سركيس اهدن . قوبلت مع نسخة المطران تادروس المكتوبة سنة ١٦٠٧ يونانية (١٢٩٦ م) في دير سيدة الحاقورة وكانت موجودة في دير مار اليشع بشري . ومع نسخة نسخها مرقوس لاسقف عرقا متأوس سنة ١٣١١ وكانت محفوظة في جزيرة قبرس لخدمة مطرانها . ومع التي كتبها الخوري ابرهيم الباني سنة ١٤٩٥ . ونسخة حبقوق الادنيني (١٥٨١) وهي محفوظة في الكرسي البطريركي . وبنسخة قزحيا التي اختصرها الحبيس سركيس ابن جلوان ١٥٨٤ »

وهذه الحاشية علقها ناسخ الشرطونية المطران يوسف مبارك من غوسطا . وقد نسخ المطران مخلوف كتاب تشمشت سنة ١٦٩٤ فرغ منه في ١١ نيسان يوم احد القيامة في بكفيا في بيت الخوري حاتم الجبيل الذي كان يدعى فياضاً وكان مخلوف علّمه ورسمهُ كاهناً

وفي تلك السنة اكمل المطران مخلوف تأليف السنكسار المعروف باسمه الموضوع على نسق السنكسار الروماني ولنا في هذا المؤلف كلام نوجهه الى فرصة اخرى

ونسخ ايضاً كتاب تشمشت آخر في سنة ١٦٩٥ وذكر في آخره ان في تلك السنة « كان جرد (جراد) لكنه سكر متطع ضرورته (ضرره) كان مواضع مواضع وكان في مصر فناء وجوع وعمل ابن معن مسعدة على الفلاحين وصار ضيق عظيم من حط المال ومن القرصة ومن قلة مغل (الغلة) . ان القمح كيله كان بقرشين والرز كل اربعة ارطال بغرش وذلك في تموخ البيادر واخرتها ما ندري كيف تكون . الله يلطف في عبيده »

وقد ذكرنا في ما تقدم تآليفه الاخرى ومذكراته

وفي سنة ١٦٧٩ اوعز اليه الدويهي ان يذهب الى المدينة الابدية فاستصحب تلامذة للمدرسة المارونية هم مخائيل القبرصي من مطرشي (١ ومخائيل نعيمه

١) مخائيل المطرشي كمل دروسه وعاد سنة ١٦٩٣ في ٥ حزيران وفي سنة ١٦٩٤ في ١٠ نيسان سيم قساً على الكفريات وهي قرية مارونية في شمالي غربي قبرس موقعها قرب دير مار الياس مطرشي الخاص بالرهبان اللبنانيين . وفي سنة ١٦٩٦ ارسله الدويهي الى رومية صحبة القس الياس الحلبي الحدثاني مع الخوري ابرهيم النزيري . وصل الى قبرس فوجد القس ابرهيم قد سافر مع سبعة اولاد فاستصحب اربعة غيرهم وتبعه فاجتمعا في عاصمة الكتلكة وهيأ الاثنان احرف

الاهدني من بيت امية (١ وترما القدسي من حصرون (٢ ولدوه الطالع وقع جميعهم في قبضة القرصان وقد نوه بذلك المطران بطرس مخلوف في مذكراته قال :

« وفي سنة ١٦٧٩ اخذتنا المغاربة بالبحر (الاسر) الى طرابلس الغرب وقفنا بها شهرين ويسيرًا (اسير) نصرانيًا (كذا) من سفاليه (صقلية) (٣ استفكنا لاجل وجه الله . يا مسيح اسألك بالحب الذي بينك وبين والدتك انك تفكه من بحر (اسر) خطاياه كما فككت اللص اليمين والخاطية وتسكنه معهم في جنتك آمين يا رب العالمين »

وكان البطريرك الدويهي وكل الى موفده ان يبسط للحبر الاعظم حالة الطائفة ويزوده عريضة تاريخها الاول في ١٠ ت ٢ سنة ١٦٧٦ ثم عدل عن ارساله فأرخها في ٨ ايلول ١٦٧٩ واختار المطران بطرس مخلوف ليحملها وكان معيّنًا لها القس يوسف مونس

انا نورد بعض فقرات منها لان فيها وصفًا لحالة الموارنة في تلك الايام . قال البطريرك الجليل : « وكنت عزمت على نفسي بالقدوم حتى اتبارك من قدسكم واهنئ غبطتكم بالدرجة السامية والسلطنة العالية لكن ما قدّر الله من كثرة الضنك

الطبع وسارا الى جبل فبكون حيث طبعا بعض كتب بفضل مساعدة وحماية الكردينال عامي الطائفة وترك مخايل المذكور مصاحف عديدة نسخها يده بالحرف الكرشوني واغلبها من تآليف الدويهي

١) مخايل بن نعمه الاهدني درس الفلسفة سنتين ورجع الى وطنه في تاسع سنة بعد دخوله . تزوج في طرابلس حيث سيمقسًا فخدم الرعية خدمة صالحة وتوفي سنة ١٦٩٨

٢) ترما القدسي من حصرون بقي وحده في الاسر بعد خلاص المطران بطرس مخلوف ورفيقيه المتقدم ذكرهما . وقد حاول القرصان ان يحمله على الكفر والاستسلام الى الشهوات وعذبوه كثيرًا فظل ثابتًا . وقد تمكن اخيرًا الذي استفك رفقاءه من ان يستفكه هو ايضًا وفي ٩ اذار ١٦٨١ دخل رومية ودرس الفلسفة واللاهوت وفي السنة العاشرة خرج من المدرسة ورجع الى القدس حيث تزوج ثم سامه الدويهي قسًا على مغارة الصليب في ٢٨ اذار ١٧٠٠ وفي ٢٠ نيسان ارسله الى محل اقامته واصحبه بكاس وصينية وطبليت وكتاب قداس وتوبية مذهبة لاجل استعمال كهنة الموارنة في القدس الشريف

٣) الاسير النصراني هو ليوناردو غروسو من مدينة مسّينا كان وقع في اسر القرصان فوُكل اليه مصروف الاسرى وتمكن من انقاذهم واستأجر لهم محلاً في مركب متوجه الى ايطالية بعد ان انفق نحو ثلاثة آكياس دراهم لاستفكاكهم وكسوتهم وقوتهم ومصروف سفرهم وقد كافأه البابا اينوشنسيوس مكافأة جزيلة . ولما احتفل تلامذة المدرسة في سنة ١٦٨٥ بمرور مائة عام على تأسيسها اطروا البابا الذي بفضله انقذ المطران بطرس مخلوف ورفقاءه من الاسر

والاضطهاد الحادث على شعبكم الماروني وخاصة في هذه السنوات الثلاث رأوا من المحن والمشقات ما لم يرَه شعب اسرائيل من الفراعنة. فان ضياع كثيرة خلت وبعض ديورة احترقت والكنائس انهجرت وتقتل شعب كثير والباقي تفرقوا بين الامم الغريبة من تغيير الحكام وقساوتهم ثم دخلت هذه السنة بالجراد الزحاف حتى غطوا وجه الفلك والارض. ثم تبعهم القحط والغلا حتى زادت الاسعار خمسة اضعاف عما كانت اولًا. لكن احكام الباري غير مدروكة ... وبنظركم العام وبحاسكم تتبصروا (كذا) بالرحمة والرأفة على كرسينا وكنائسنا وكهنتنا الذين تحت عبودية البربر فلم يزالوا منذ القديم طائعين لسننكم وداعين لقدسكم بالدوام والبقاء والعلو والارتقا... والواصل الى تقبيل اقدامكم اخونا المطران بطرس مطران الافقسية المكرم هو يخبر قدسكم بباقي احوالنا. فان رسم خاطركم الشريف تشملوه بنظركم الكريم وتفضوه بالعاجل حتى يعاود لرعيته ومهما تفضلتم به علينا ترساوه معه حتى لا تزال قائمين بهذه الحسنة».

اما المطران بطرس مخلوف فلم يحل رومية الّا في العام التابع بسبب وقوعه في الاسر. وقد حظي بالمثول لدى قداسة الحبر الاعظم فشمله بعطفه وانالهُ مطالبهُ وزوده جوابًا مفعمًا بالعواطف الابوية (٢٠ ت٢ ١٦٨٠) واعطاه مساعدة للكرسي البطريركي (٣٠٧ ريالات).

ومما قاله الحبر الاعظم: «ان الكتابة التي رفعتها الينا على يد الاخ المحترم بطرس ضوميط مطران نيقوسية بمناسبة ارتقائنا الى الحبرية العظمى شملنا منها سرور عظيم لاننا وجدنا فيها عبارة طاعتك الثابتة الدائمة وطاعة طائفتك المارونية الجزيلة التقوى التي لا يتزعزع ايمانها. وبالاستمالة الابوية نشمل طائفتك باسرها وانت قبل الجميع بكل ما فينا من عواطف الحب. ونرغب ان تعلموا وتتأكدوا اهتمامنا الخصوصي لتدبير شؤونكم وان بعد الشقة لا يمنع من ان تكونوا دائمًا نصب اعيننا كما سنثبته لكم بالبرهان كلما سنحت الفرصة. وقد ارسلنا اليك الآن شيئًا غير جدير بالذكر علامة رضانا كما ستعرفه من اخينا المذكور الذي اقبلناه بسرور».

وفي اليوم ٢٨ ك ١ من سنة ١٦٨٤ احتفل تلامذة المدرسة المارونية احتفالًا باهرًا بمرور قرن على تأسيسها فزيّنت الكنيسة وفُرشت القاعات بالاقمشة وعُلقت على

الجدران صور الذين نبغوا بين التلامذة منهم ثلاثة بطاركة واثنا عشر اسقفاً من جملتهم بطرس مخلوف وتسعة كهنة. ولما انتظم عقد المدعوين قرأ التلامذة التقاريظ الموضوعة في اللغات مختلفة فمدحوا البابا اينوشنسيوس الحادي عشر الذي انقذ المطران بطرس مخلوف ورفقاءه من الاسر وخصوا بثنائهم واخلاصهم مؤسس المدرسة البابا السعيد الذكر غريغوريوس الثالث عشر وشكروا للكردينال نرلي محاميها وعددوا مناقب التلامذة الذين اشرنا اليهم ومدحوا اجتهادهم في التعليم والتبشير ونشر الايمان وتمزيزه. ورسمُ المطران بطرس مخلوف كان موجوداً في المدرسة الرومانية

قلنا ان حوادث خطيرة جرت في لبنان فعكرت صفاء راحته واقلقت اهاليه واشغلت بال البطريرك والاساقفة واليك وصفها في ورقة استدللنا من بعض الملحوظات انها للمطران بطرس مخلوف اورد فيها سنةً سنةً ما جرى في تلك الايام اي من سنة ١٦٩٣ حتى سنة ١٦٩٨. وها نحن نذكرها صوناً لها من الضياع:

« في تشرين الثاني ١٦٩٣ في ايام مار اسطفان الدنافي الدوجي وفي السنة ركب باشة طرابلس الذي كان اسمه علي باشا على الحمادية وساعدوه الحوازنة وابن دندش وامارة الاكراد والمقدم قيديه بن الشاعر وطردوا الحمادية من بلادهم واسبوا نساءهم وطفروا على الثلج من عين بحر وتفدوا في بعلبك وكان ذلك في السنة المذكورة في شهر شباط ولحقهم الباشا على الرمل. الرجال الذي لحقهم قتلهم والنساء سباهم وقد تشتتوا في البلدان وتم في شهر (لا ذكر لاسمه) في السنة المذكورة نشوا الدولة وامارة الاكراد جبة المنيطرة والامير محمد الكردي تصالف مع حسين بن مرحان حماده ونصره الله عليه وقتله واخذ راسه الى طرابلس وهذا حسن كان يومئذٍ رئيس الحمادية وتفرقوا الحمادية في البلدان

« ثم في سنة ١٦٩٤ في ايار اجتمعوا الحمادية في ارض جبة المنيطرة وطلع البكارات والدولة وابن دندش وجاؤا الى جبيل من فوق وجاء امارة الاكراد ومقدمين بيت الشاعر وطلعوا على الفتوح ووصلوا الى عين قبيقل واتى سيمين ابن مرحان مع الحمادية ورفاقه وقتل من الامارة ثلاثة ومن المقدمين اثنين وصارت بينهم معركة عظيمة وبانت الكسرة على الامارة والمقدمين وطفرهم سيمين حماده. ثم في شهر ايلول في السنة المذكورة راح سيمين ورفاقه الى بلاد جبيل اتوا اليه (رجال) الدولة وابن دندش وابو ابرهيم نخلوس وامارة الاكراد ومقدمين تولا وطفروهم من جبيل وقتلوا من رفاقه اناس وجرحوا البعض منهم وهرب الى كسروان

سنة ١٦٩٥ حكم بلاد جبيل الشيخ يونس حبيش وكانت يد سيمين حماده معه وكان في الرهينة ابي مطرق سادق حبيش ومات في الحبس والحمادية كانوا مزروعين في جبيل وهذه السنة كانت مرفقة وجاء الجرد في الربيع الاكان عسكره متقطع وكانت ضرورته قليلة. تمت ولله الحمد

« وكان الفراغ من هذا النسخ المبارك سنة ١٦٩٦ في ٢٨ من شهر نيسان المبارك في ايام رئيس

الاباء مار اسطفانوس بطريرك مدينة الله انطاكية وفي ايام الامير احمد آل معن وكان الشيخ برتوفل حصن في غوسطا وبيت حماده كانوا مطرودين من بلادهم وكان رئيسهم سيمين وحسن والده كان قتل من امارة الاكراد وباشه صيدا كان مسك الشيخ حسن بن الشيخ احمد وابن اخيه محمد وحسن مات محبوساً والقوا جثته للكلاب ومحمد كابد بعده محبوساً . تم . . . »

ثم عثر على كتاب آخر لم نعرف اسمه ما يأتي: «وكان الفراغ من هذا الكتاب سنة ١٦٩٥ في كانون الثاني على يد المطران بطرس مخاوف من قرية غوسطا وكان مار اسطفان الهدناني في قنوبين وحصن الخازن كان حاكم بلاد جبيل وقاطع غزير وابن معن كان اسمه احمد وحاكم بلاد الشوف الى جسر المعاملتين وموسى ابن علم الدين التجا لباشة صيدا لانه هرب من الشوف من قدام ابن معن ومسكه عنده باشه صيدا مثل باز . وفي هذه السنة حدث امور جدّية لم نعلم ان كان حدث سابق مثلها وهي ان من الخريف الى يومنا هذا الذي هو يوم من كانون الثاني ما رويت الدنيا مليح ولا جاء عيانة بل نزل مطر مثل مطر الربيع ولا جرى سيل ولا جمعت البيارة ماء وكل موضع معطاش داقوا اهلها المحترة وجاء الى هذه البلاد اي طرابلس الشام وصيدا وما يليها طير غريب وهو من ثلاث جنوس اولاً وز برّي وثانياً حمام برّي وثالثاً طير آخر له طنطور مثل القوبار ودويك الجبل . ويجي يفذر القاق امه وهو ناشف ما عليه لحم الّا الجلد والعظم والبعض من سلسلته بيضه وصدره اسود والبعض صدره ابيض ويطير في النهار والليل ويصرخ كبيخ ام كيخ ويطرل بلظة(؟) . وقد قيل لنا من بعض ناس انه اتى وحش غريب الى هذا البلد وهو بقر برّي بثوب احمر ابلق ونحن لم نره بل قيل لنا من بعض ناس . ومن جهة الحمادية كانوا راحوا على جبة بشري وعلى البترون والكورة والزاوية وبلصوا ناس وقتلوا ناس وعماد ابن معن ردهم وهو اليوم في بلاد بشارة وفي بلد ابن معن مفرقين . وعندما رفعوا الخوازنة ايديهم من جبيل دخلت الحمادية في البلد . وفي السنة عشر من اذار رويت الدنيا ونزلت النهورا الشتوية وطلعت العيون ودارت الطواحين الشتوية ودام المطر ثلاثة ايام والتوت في الساحل موضع ما ضرب من العيانه ظهر عجايب والزرع طلع مقبل تمّ لله الحمد

«وسنة ١٦٩٦ وهذه السنة كان الامير موسى ابن علم الدين في دير القمر وولد الامير بشير كان في المتن وابن معن كان متخفياً والشيخ حسن الخازن كان معه بلاد

جبيل . وبلاد الجبة مقسمة ثلاث قسمات على اولاد كيروز واولاد ابي رزق الترتجي وعلى ابي كرم وابن اخته نخاوس . تم بالخير . سنة ١٦٩٧ من تشرين الثاني وفي ذلك العام اتى الامير احمد الكردي من امارة راس نحاش ومعه الامير احمد ابن علم الدين الى قرية المتين واحرقوها وفتحوا قبر مراد ابن بلمع وكسروا عظامه واحرقوا الكنيسة وفتحوا القبور الذين للنصارى والدروز ونهبوا جميع ما وجدوا وابن معن اختفى لانه طلع امر من السلطنة وجاء في الامر باشا تفتجي يفتش على النصارى ويقتلهم ويسبي بلادهم وابن معن الامير احمد كتب عاصي لسبب انه لفّا الحمادية اليه . وعلي باشا كان جاب فيهم امر من السلطنة وجاء هو باشا على طرابلس وطفّر الحمادية من معاملة طرابلس ونجّاهم الامير احمد معن في بلاده وكاتبه علي باشا حتى يطفرهم من بلاده وقبل منه . ومع السعد علي باشا صار وزير وامر في الركبة على ابن معن وانطرد ابن معن من بلاده واختفا ظهر اليمنية واجتمعوا على الباشا التفتجي وحرقوا المتين وحارة المقدّم عبدالله ابن قيدبيه في صليا وما ندري كيف تتم هذه السنة . وبعد ذلك نشروا على وادي التيم واحرقوه ونهبوه وما لحقوا له نسا ولا رجالي وطلعوا كبار الشوف والجرد والغرب والمتن وكسروان وحضروا على الباشا التفتجي وعلى الامير موسى ابن علم الدين ورجعوا بالسلام الى مواطنهم والامير موسى المذكور نزل الى دير القمر وسكن موضع معن وارسل ابنه بشير مع الامير نجم يحكم في كسروان على القاطعين . حكموا اليمنية خمسة شهور وطلعوا من البلاد لا ضربه ولا طعنه ولا كون ولا جمية كما انهم دخلوا بلا معركة كذلك خرجوا ورجع ابن معن الى موضعه في الصيام في شهر آذار (١٦٩٧) . وذكر الدويهي انه مات في ايلول من تلك السنة

تلك كانت حالة البلاد في اضطراب دائم وقلق مستمر فأنّى يتسأتى لها ان تتمتع بالراحة والسكينة وكيف تسعى في طرق الرقي . الزعماء يتنازعون الارض وما فيها فيخربونها فتصبح بؤرًا سنين متوالية لفقد الامن والطمأنينة

اما النصارى فكانوا اشبه بكرة تتلاعب بها ايدي الحمادية وولاة الامور الاتراك والدناشة ومن شاكلهم . نعم ان المعنيين كانوا يحمونهم لكن المعنيين كانوا من المغضوب عليهم كما رأيت يحتاجون الى من يردّ عنهم سخط الدولة العثمانية مع انهم كانوا يسعون لخير البلاد التي يحكمونها واستقلالها وما كان هذا السعي ليُرضي

الاتراك . وقد انقرضت اسرتهم بموت الامير احمد بن معن كما ذكرنا

ففي تلك الشدة وجّه البطريرك انظاره الى محامية طائفته الامينة فارسل المطران بطرس مخلوف الى رومية سنة ١٦٩٥ وذهب معه يوحنا مرمغون موفداً الى فرنسة من قبل الطائفة والشيخين حسن وناصيف الخازن. وقد زوّد المطران المذكور رسوله كتابات الى ولي عهد فرنسة قد ذكرنا نصّها في كتابنا «صديقة ومحامية» وقد جاء فيها ما يصف حالة البلاد نعيد ذكره الآن :

«بعد تقبيل الارض بين ايادي حضرتكم الجليلة انه واصل نحو مشرفكم قاصدنا ووكيلنا ووكيل طائفتنا يوحنا مرمغون وحامل مكاتيب امارتنا حسن وناصيف لكي يرمي طاعة للسلطان والدكم وهو رجل من طائفة اصيلة وقد يطلب من السلطان القنصلية لاميرنا حسن كما منّ على اجداده لانه صار علينا ضيق عظيم في هذه البلاد من جهة الاسلام. ونرغب ان يكون بيرق سعادتكم معنا نطلب من جناب حضرتكم ان يكون نظركم على المذكور يوحنا مرمغون وتوصوا فيه عند والدكم الملك العزيز وتشفعوا فيه وتقضوا مصالحه يبقا لكم اجر عند الله ونحن وجميع الطائفة نصلي الى الله تعالى لكي يحفظكم ويعد في حياتكم» . وقد كتب في المعنى نفسه الى الملك وفصّل له المخرائب الباهظة التي كانت تفرض على الموارنة وتجبى منهم قسراً

وقد نالت طلبات مطران قبرس والطائفة استحسان الملك فقلّد الشيخ حسن قنصلية بيروت وذلك خلافاً لما كان قرّر في امر ملكيّ صادر بتاريخ ١١ آذار سنة ١٦٨٥ ألّا يُعيَّن الاجانب فيما بعد موظفين افرنسيين في الشرق

وقد شاء الملك اكراماً لخاطر تلك العائلة واجابةً لرغبة البطريرك والمطران بطرس ان يتجاوز النظام الذي سنّهُ لكنهُ ابان للشيخ حسن ما يترقبه منه من الاهتمام بامر الديانة والتجارة الفرنسية . وقد اوضح ذلك الوزير ده تورسي في تعليماته الى العمّال الفرنسيين في الشرق قال : «ان الملك باعتماده هذا التدبير قصد ان يخفف الشرور والويلات الحالّة بالنصارى الوطنيين ويزيد في منافع رعيّته المتعاطية التجارة في تلك الاسكلة (بيروت)» . وقد نال الشيخ حقّ التمتع بكل ما للقناصل من الامتيازات وخصوصاً الحق بان يقيم له نائب قنصل يفوّض اليه بعض الحقوق في امور معلومة

وفي ٣ تموز سنة ١٦٩٧ اجاب الملك وولي العهد على كتابات المطران بطرس المتولي في تلك الحقبة وكالة البطريركية مدة تغيّب الدويهي ... كسروان. ومما جاء في مرسوم الملك «ان الاعتبار الذي اشعر به نحو جميع الذين ... سكون بالايمان الحق في اي قطر كانوا لا يمكن ان يدع لكم مجالًا للريب بنا اشعر ... نحوكم بنوع خاص»

وفي اول تشرين الاول ١٦٩٨ كتب المطران بطرس ... حلوف ثانيةً الى الملك يطلب منه ان يتكرم براتب على القنصل ويرسل اليه بيرقًا ... (المشايخ الخوازنة) قدامهم لمّا يخرجون للسفر والقصد من ذلك بيان الودّ والم... ونشر اسم الملك ثم يلتمس منه ان يكون «حسن نظره على ابن عمه الشدياق ... حامل المودّة»

وقد كتب البطريرك الدويهي بالتاريخ نفسه يشكر ... ك انعامه هذا ويقول «بهذه النعمة (اي الانعام بالقنصلية على الشيخ حصن) شرفت ... يدكم الملة المارونية التي من الزمان القديم خاضعة لسنن الكنيسة الرومانية ومستظلة ... بحماية الملة الفرنساوية ولم تزل في جميع صلواتها ليلًا ونهارًا تخشع لاجل انتصاركم ... وحفاظ بلدانكم. والزايد الآن في تشرفكم لعبدكم الشيخ حصن المفوض امره ... بها وله الاهتمام والعناية على رفع شأن البيعة الارثوذكسية وعلى نشر الكتائس وجمع ... جميع الذين يلتجون اليها في هذا الجانب حتى ولو كانوا تحت عبودية الامم الغريبة ... لله الحمد وفي نظركم الجليل ديانة السيد المسيح هي مزهرة في كسروان تحت حمايتكم توقف عن كل اقطار الشرق»

وكان الاب ده پواليفاش رئيس رسالة اليسوعيين في جبل لبنان كتب الى الاب فلوريو وكيل الرسالات في باريس يمدح آل خازن والموارنة ويستفزّه ليساعد الرسول على اتمام مهمّته

وكان الوفد الثاني الشدياق يوحنا بن الخوري الذي دعي بالافرنجي جوديسي (ونظن انه من بيت قُدَيسي) ويقول عنه المطران بطرس مخاطبًا انه ابن عمه. فوصل يوحنا في اوائل ١٧٠٠ الى باريس وما طال به المقام حتى خيب الى بعض مطاليبه وأجل البحث في غيرها. ومن مطالعة جواب بونشرتران ... مطران قبرس تتجلى الحقيقة فان الوزير كتب اليه بتاريخ ٢٩ ك ١ من تلك السنة نفسها ان السلطان لم يستصوب منح الشيخ حصن الاربعة آلاف ثلث «عارفة» ... قنصلية بيروت لانه لم

يكن لتلك القنصلية «علوفة» من قبل ولا الامير ابو نوفل والامير قنصو طلبا ذلك بل كانا يأخذان ما يتقاضيانه التجار من الرسوم المقررة. لكنه وعد بانه في الزمان الموافق لا يتأخر عن مساعدة الامير حسن وقال انه اوعز الى سفيره في الاستانة بان يعد القنصل والطائفة المارونية «بجميع ما يجي ليده من الامداد» ثم زاد انه وضع بيد الشدياق يوحنا ابن الخوري اختم الشريف الملكي الذي طلبه مطران قبرس

ولا تظنن ان الرسول عاد حالاً الى بلاده بل استمرّ سنة ايضاً في فرنسة ولم يعد قبل اواخر نيسان ١٧٠١ بعد ان نال من جود الملك مالاً وجوازاً لقّب فيه بلقب فارس وزُوّد كتابات للبطريرك والمطران قبرس تاريخها ٤ اذار ١٧٠١ تحتوي شهادة بحسن سلوك الرسول وفطنته. وفيها اثبت جلالته حمايته للموارنة وقال في كتابه للمطران بطرس: «كن على يقين انني اكون ابداً مستعداً ان اظهر لك في كل فرصة تسنح لي ان مصالح طائفتك ومصالحك خصوصاً هي عزيزة اديّ للغاية» ومثله كتب ولي العهد الى البطريرك والمطران والشيخ حسن

ولا يخالجن فكرك ان كل هذه المهام استغرقت كل وقت المطران بطرس مخلوف فانه ما فتئ ينظر في شؤون رعيته ومصالح الطائفة فانه لما انتقل الحكم من احمد ابن معن الى الامير بشير شهاب سعى المطران المذكور بالحصول على مكتوب حماية الى الديورة وجدنا نصه في مذكراته وهاكه بحرفه:

«سنة ١٦٩٧ رباية حضرة الامير بشير شهاب الذي تخلف الامير احمد بن معن كتب مكتوباً للديورة التي تحت ولايته وهذه صفته:

دير طاميش. دير الخاج سلهب. دير الحراش. دير الراس. دير عنطوره. دير مار شليطا. دير مار الياس غزير. دير مار غبدا. دير المقلة. دير ريفون. دير عين ورقة. دير حريصة. دير بحردق. دير مار يوحنا زكريت. دير مار انطانيوس دير مار الياس شويا. دير الملكية. دير رومية

الى اعزّ المحبين المطارين والخورنة والرهبان الذين في الديورة المذكورين المكرمين سلمهم الله تعالى اولاً مزيد الاشواق اليكم في خير وعافية وبعده نعرفكم انكم تكونوا في اشغالكم وتقووا وتعمروا وتجدّدوا وتكونوا طيبين الخاطر من سائر الوجوه والجهات. ولا تقدموا قدامكم الاّ كل خير وان شاء الله تعالى ما تشوفوا منا الاّ الحماية والرعاية ومتعالكم بجاري عوايدكم وما غلّي يتغير عليكم الاّ وجه المرحوم المغفور له من الله تعالى وكل من صار منه تعدّي على وقفكم تعرفونا فيه حتى نرسل لنقطع من حقه. يكون معلومكم والسلام. وحضرة ولي النعم صاحب الدولة الوزير المحترم ارسل لنا خاتة فاخرة والشرطنامه والسلام»

وفي اثناء وجود رسول الطائفة في باريس تجدّد الاضطهاد في لبنان وقبرس فكتب الدويهي رسالة الى ملك فرنسة وتاريخها آخر تموز ١٧٠٠ جاء فيها :

« ان مال الكرسي الذي كان مرتباً عليه سابقاً الى باشا طراباس كان مايتي غرش وفي اول ارتقائنا الى درجة البطريركية اوصلوه الى اربعمائة قرش ولم يزالوا عام بعد عام يزيدوه ظلماً وتبريع (تبرّعاً) كما ان هذا البلد الذي نحن فيه كان اولاً ماله اربعة آلاف غرش ثم اوصلوه الى سبعة آلاف ولم يزالوا يزيدونه على خاطرهم لكونه تحت الضمان » ...

وفي تحرير آخر تاريخه شهر آذار ١٧٠٠ تكرار ما كتبهُ في تموز وقد نشرنا ذلك في كتابنا «صديقة ومحامية»

اما احوال الموارنة في جزيرة قبرس ففصلها المطران بطرس مخلوف في عريضة وجهها الى الملك تاريخها ١٥ ت ١ ١٧٠١ وطلب منه ان ينجّي رعيته في قبرس من الجور والاضطهاد. والحق يقال ان الموارنة الذين كان عددهم ٣ آلاف نسمة يوم تولى الدويهي رئاسة اسقفية قبرس اصبح سنة ١٧٠١ خمسمائة نفس كما روى ده غاستين في تقريره حيث قال ان لهم اسقفاً يتعلق امره بالبطريرك اللبناني. وكان حاكم الجزيرة اعتقل بعض الموارنة وارغمهم على دفع ٢٤٠ غرشاً بمثابة خراج مع اننا سبقنا فاوردنا ما كان مفروضاً عليهم وهو لا يتجاوز ٥ غروش عن كل مكلّف

فاهتمّ الملك شديد الاهتمام بامر الموارنة وكتب الى قنصل قبرس (١٧٠٢) يأمره بان يبذل جهده ليخفف وطأة الظلم عن الموارنة قاطني الجزيرة. ولما لم ينجح القنصل في مهمته كما كان يشتهي الاسقف المتحرق لوعةً على ابنائه استأنف الراعي الاستغاثة بالملك واتهم القنصل (١٧٠٣) انه لم يُعنَ بامر الموارنة كما يجب ومما قاله انه ما ترك الجزيرة الّا من شدّة الاضطهاد وعدم عناية القنصل به وبرعيته العناية الكافية. وفي ٨ شباط ١٧٠٢ كتب الوزير الى السفير ده فريول يقول له : « ان الاضطهاد كاد يتوقف في قبرس وقد سرّ الباشا بما قبضهُ من الترجمان ومن رجل ماروني ومبلغه ٨٠٠ او ٩٠٠ غرش فلا يوافق الآن ارغامه على ارجاعها لئلّا يستأنف الاضطهاد فالاوفق انتظار فرصة انسب من الفرصة الحاضرة لفتح هذا الباب»

لكن رغم ما كان يبذل عمّال فرنسة من المساعدات لهؤلاء التعساء لبثت حالتهم

لا تتحسن تحسناً يُذكر فاننا نعرف من كتابات القناصل ومفتشي الاساكل ما كانوا فيه من الشدّة. وكان قلب اسقفهم متفطّراً عليهم حتى في مرارة قلبه كان يظن ان الجميع يهملون الاعتناء بامور ابنائه. والسبب في عدم نجاح السفراء والقناصل لدى الباب العالي هو ان انكسارات جيوش لويس الرابع عشر في حرب خلافة اسبانية كانت اخبارها بلغت الى الاستانة فاستخفّوا به ولم يبالوا باقوال ممثليه

وقد كتب ده غاستين الى الملك (٥ ك٢ ١٧٠٧) عن حالة الموارنة بعد ان زار جزيرة قبرس في السنة السابقة فاسهب في وصف شقائهم وقال «انه مع ما المّ بهم من الاضطهاد استمرّوا على تمسكهم بدينهم والتمسوا منه ان ينال لهم رخصة بتأسيس معبد في الملاحة (لارنكا) يقدس فيه كهنتهم ويقضي فيه واجباتهم الروحية الملّاحون الموارنة القادمون الى ذلك الثغر من شطرط لبنان. وطلبوا مساعدة قدرها ٣٠٠ غرش بدل تلك التي كان يجود بها عليهم امير سايوديا»

اما الباب العالي فلم يرخص ببناء الكنيسة ولا اعطى بذلك فرماناً فاضطرّ الموارنة الى الاجتماع في بيت لاقامة فروضهم الدينية. على انه بتوسط السفير أُرجعت الى الموارنة كنيسة الكفريات التي كان اغتصبها اياهم الاروام

وفي ٢ شباط ١٧٠٨ كتب السفير رأساً الى متسلم قبرس لعلّهُ يرأف بحالة الموارنة في الجزيرة فوعده خيراً

٦ ايامه الاخيرة ووفاته

وفي ٣ ايار سنة ١٧٠٤ نقل الله الى دار الابرار البطريرك الجليل والعالم العلّامة اسطفان الدويهي بعد ان جاهد في كرم ربّهِ جهاداً عظيماً واتحف الطائفة المارونية والكنيسة والعلم بامثال فضائله وثمار علمه وتنقيبه وخلّف ذكرًا مجيداً وارج فضيلة سامية زادتها المحن بهاء ورونقاً. ولم يكن الاساقفة جميعهم في قنوبين بل الموجودون فيه تركهُ قسم منهم خوفاً من المتاولة وتلافياً لضغطهم وقصدوا الى كسروان فكتب اليهم برلّار قنصل فرنسة في طرابلس يذكرهم بالتقاليد القديمة فجاوبه المطران بطرس مخلوف والمطارنة الذين كانوا في كسروان انهم كانوا تأهبوا للسفر رغم تفرقهم في ابرشياتهم وعجز اثنين منهم ومرض اثنين آخرين لكن وسلّا التقوهم في

الاستاذ شكري فرداحي

بثوب التعليم الرسمي

الطريق كان اساقفة الكرسي في قنوبين بعثوهم اليهم فاخبروهم انهم هم انفسهم صمّموا على مغادرة قنوبين ليتخلّصوا من الحماديين وتدخلهم

وللحال عاد الاساقفة كلهم الى كسروان وعقدوا مجمعهم في دير مار شليطا مقبس وصباح عيد العنصرة من تلك السنة وقع اختيارهم على مطران حاب جبرائيل البلوزاني. وهذا كان متقدماً في السن لكنه كان تقيًّا متصفاً بالفضائل الكهنوتية كما شهد له القناصل والمرسلون وكل الذين عرفوه

اما عميد المطارنة فكان المطران بطرس مخلوف الاقدم عهداً في الاسقفية كما هو بيّن من ترتيب التواقيع في ذيل العريضة التي رفعها الاساقفة والمشايخ واعيان الطائفة الى قداسة البابا طلباً للتثبيت ودرع الرئاسة وتاريخها اول آب ١٧٠٤

على ان الله تعالى لم يطل عمر البطريرك الورع بل نقله الى راحة الصالحين في ٢٨ تشرين الثاني من السنة التالية فالتأم مجمع الاساقفة في قنوبين بعد ان توفق قنصل فرنسة في ان يقصي الحمادية عن الجوار ويحملهم على عدم التعرّض للانتخابات. وقد استمر الانقراع عن انتخاب المطران يعقوب عواد اكثر من عهد بطريركيته الاضطرابات وكادت تودي بوحدة الطائفة كما يتبيّن من تقارير القناصل والسفراء والمرسلين. ولذا اخذ الاساقفة يعترضون على انتخابه وفي مقدمتهم المطران بطرس مخلوف والمطران يوسف مبارك مطران صيدا فكتبا الى استيل قنصل فرنسة في صيدا وطلبا منه ان يساعدهما على ابطال الانتخاب فكان جوابه انه لا يستطيع التدخل في امور الكنيسة. فاخلد الاسقفان الى السكينة. اما المطران بطرس مخلوف فصرف ما بقي من حياته في تدبير رعيته في لبنان وقبرس. وذلك واضح من كتابة وزير الملك لويس الرابع عشر الى السفير ده فريول وفيما يقول ان الملك اطّلع على حالة الموارنة في جزيرة قبرس وهي حالة تعيسة. وقد سبق لنا ان ذكرنا ان المطران مخلوف بسط له واقع الحال وتشكى من اهمال القنصل حماية الموارنة حماية فعلية

ولما علم امراء سابويا ان المطران مخلوف يلتجئ الى دولة فرنسة ويطلب مساعدتها قطعوا عنه المرتّب الذي كانوا قرّروه لمطران قبرس في ايام الاسقف يوحنا مارون في اوائل الجيل السابع عشر كما يتضح ذلك من كتابات المطران الياس الجميّل الى المجمع المقدس

ولم نرَ بعد سنة ١٧٠٦ غير اثر واحد يدلُّنا على ان المطران بطرس مخلوف كان في قيد الحياة في اوائل شباط ١٧٠٧ وهذا الاثر هو حاشية معلّقة على كتاب قداس مخطوط موجود في الكرسي البطريركي وهاك نصها :

« كان الفراغ من هذا الكتاب المبارك في رابع يوم من شهر شباط سنة ١٧٠٧ بايام رئاسة بطركنا المفخّم مار يعقوب الحصروني في كرسي انطاكية ومطرانتنا يوسف الريفوني وفي زمان مطارين ايضاً الكرسي مار جرجس الحدناني ومار جبرائيل ومار خيرالله ومار حنا ابن المحاسب ومار بطرس مخلوف وغيرهم »

فاستنتجنا ان هذا الاسقف النشيط استأثرت به رحمة الله ما بين سنة ١٧٠٧ والسنة التالية لاننا وجدنا في عريضة المطران الياس الجميّل مطران قبرس الى المجمع المقدس والى امين سرّه السيّد بورجيا المكتوبة في سنة ١٧٧٤ ان دوق سابوديا قطع الاعانة التي كان خصّصها اجداده بطران قبرس في ايام المطران بطرس ضوميط الذي توفي من نحو سبعين سنة

والحق يقال اننا لنعجب كيف ان هؤلاء الاساقفة كانوا يبلغون الى هذا العمر مع ما كان يحيق بهم من المحن وما يبذلونه من الجهد وما يعانونه من التعب. أليست يد الله كانت معهم ونعمته تعضدهم فيقووا بصبرهم على احتمال كل هذه المشاق ؟

هذا ما اتصل بنا من حياة هذا الراعي الصالح المجتهد آثرنا نشره تنشيطاً المغرمين بجمع آثار النصرانية في الشرق حتى يبادروا الى طبع ما فازوا به لافادة العموم ولإحياء مجد اولئك الذين في ازمنة عصيبة كانوا مثال الشجاعة المسيحية يقرنون الفضيلة بالعلم والعمل يديرون شؤون رعاياهم بغيرة لا تعرف الملل ويهتمّون لاحياء آثار السلف يؤلفون الكتب المفيدة للتاريخ والدين والاداب. وما المطران بطرس ضوميط مخلوف سوى واحد من كثيرين خليق بنا ان ننشر فضله وان نبقي محفوظة آثار غيرته واجتهاده. نفعنا الله بامثاله وصلواته